

التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين The Folklore reflected by orientalists

صليحة سنوسي

المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، senouci.saliha@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2022/09/19 تاريخ القبول: 2022-12-21 تاريخ النشر: 2022-12-31

ملخص: يعدّ التراث الشعبي المكتوب دعامة من دعائم التراث الشعبي الجزائري، بحيث يؤدي دورا مهماً في نقل وحفظ الموروثات الشعبية المادية منها وغير المادية من جيل إلى جيل، فإلى جانب مواد التراث الشعبي المختلفة الموجودة في المناطق الجزائرية هناك أشكالاً أخرى من عناصر التراث المدونة في بعض المخطوطات والأرشيفات والكراريس، وحضورها في كتابات المستشرقين خاصة، أمر مؤكّد بحيث كانوا يكتبون ويوثقون ويجمعون كل ما يرونه ويسمعونه في مختلف المناطق الجزائرية. ومن هذا المنطلق جاء الهدف من كتابة هذه الورقة البحثية التي نحاول من خلالها أن نبرز الدور الذي لعبه هؤلاء المستشرقون. ولنركّز أكثر على قيمة تلك المدونات وعلاقتها بحفظ التراث الشعبي قمنا بقراءة تصنيفية موضوعاتية لمجموعة من المقالات التي تطرقت إلى أشكال التراث الشعبي بشقيه المادي وغير مادي بعض الدوريات التي صدرت في الفترة الاستعمارية، والتي من خلالها ندرك غنى وثراء موروثاتنا الشعبية ونكشف عن المواضيع التي لقيت اهتماماً كبيراً عند المستشرقين.

الكلمات المفتاحية: التراث؛ المستشرقون؛ التدوين؛

Abstract : The written folklore is one of the pillars of the Algerian folklore, for it plays an important role in the transfer and the preservation of tangible and intangible folklore from generation to generation. Thus, In addition to the various folklore materials found in different Algerian regions, other forms of heritage elements are recorded in some manuscripts, archives and pamphlets and their presence in the writings of orientalists in particular, is certain as they were writing, documenting and collecting everything they saw and heard in those Algerian regions. From this perspective we aim, in this research paper, to highlight the role played by these orientalists. In order to focus more on the value of these writings and their relationship to preserving folklore, we read a thematic classification of a group of articles that dealt with the forms of folklore, both tangible and intangible, in some periodicals issued in the colonial period, through which we perceive the richness of our folklore and reveal the topics that received orientalists' greatest attention.

Keywords: folklore; orientalists; written

المؤلف المرسل: صليحة سنوسي / الإيميل: senouci.saliha@yahoo.com

يعدّ التراث الشعبي المكتوب أو المدوّن دعامة من دعامات التراث الشعبي الجزائري، بحيث يؤدي دورا مهماً في نقل وحفظ الموروثات الشعبية المادية منها وغير المادية من جيل إلى جيل، ولهذا فهو بمثابة عامل ثروة وبناء إذا ما عملنا على استغلاله أحسن استغلال و دراسة مواضيعه المتنوعة؛ فإلى جانب مواد التراث الشعبي المختلفة الموجودة في المناطق الجزائرية هناك أشكالاً أخرى من عناصر التراث المدونة في بعض المخطوطات والأرشيفات والكراريس وحضورها في كتابات المستشرقين خاصة أمر مؤكد بحيث كانوا يكتبون ويوثقون ويجمعون كل ما يرونه ويسمعونه في مختلف المناطق الجزائرية من ممارسات وسلوكات، فقاموا بتسجيلها وتدوينها في دفاتر و مجلات كانت تصدر في الفترة الاستعمارية. ومن هذا المنطلق جاء الهدف من كتابة هذه الورقة البحثية التي نحاول من خلالها أن نبرز الدور الذي لعبه هؤلاء المستشرقون في الكتابة والتدوين وإظهار جهودهم في توثيق التراث الشعبي الجزائري، وما حفظوه لنا من عادات وتقاليد ومعتقدات وتعايير شفهية وغيرها من المواضيع التي تجعلنا نقرّ بشراء وغنى الجزائر بموروثاتها الشعبية.

ولنركز أكثر على قيمة تلك المدونات وعلاقتها بحفظ التراث الشعبي قمنا بقراءة تصنيفية موضوعاتية لمجموعة من المقالات التي تطرقت إلى أشكال التراث الشعبي بشقيه المادي وغير مادي ببعض الدوريات التي صدرت في الفترة الاستعمارية خاصة المجلة الافريقية والآسيوية والمجلة الجغرافية للجزائر وشمال إفريقيا، حيث قمنا بجمع المقالات التي تطرقت إلى التراث وصنفناها تصنيفاً موضوعاتياً. والتي من خلالها ندرك غنى وثراء موروثاتنا الشعبية ونكشف عن المواضيع التي لقيت اهتماماً كبيراً عند المستشرقين الذين كان لهم حضوراً بارزاً مع دخول الجيش الاستعماري الفرنسي، إذ كان من بينهم الأدباء والمترجمون والكتاب والفنانون وغيرهم من المثقفين، الذين اختلفت وجهات نظرهم بين النظرة الاستعمارية الاحتقارية والنظرة العجائبية الرومانسية، ما أدّى إلى الاختلاف في تمثالتهم لصورة المجتمع الجزائري، الشيء الذي صعب من تحديد مفهوم "الاستشراق" و"المستشرقين" وجعل الباحثين ينقسمون إلى قسمين قسم يرى أنها حركة متعصبة والقسم الآخر يرى أنها منصفة وذات نوايا حسنة، إلا أنّ المفكر إدوارد سعيد يرى أنّ الاستشراق هو "نمط من الإسقاط الغربي على الشرق وإرادة السيطرة عليه... معللاً ذلك بأنّه "قد افترض في القرنين التاسع عشر والعشرين أنّ الشرق وكل ما فيه يحتاج إلى دراسة تصحيحية من جانب الغرب، وإن لم يكن الشرق وكل ما فيه في موقع أدنى بصورة واضحة من موقع الغرب..." (سعيد، 2006، صفحة 97).

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

2 تحول مصطلح "الاستشراق" من اللغوي إلى العلمي

لعل المتعارف عليه بين العلماء والمفكرين أنّ المستشرق - بغض النظر عما يروونه من سلبيات و إيجابيات - هو مصطلح يطلق على كل من يهتم بحياة الشرق ويحاول التعرف على ثقافته ودينه وعلومه واكتشاف حضارته، وقد تعلم كثير من العلماء والمؤرخين والكتاب الغربيين اللغة العربية واستطاعوا إتقانها والكتابة بها، وهكذا تطور الاستشراق نتيجة هذا الاهتمام وتحول إلى علم قائم بذاته. ولكن كيف تحولت كلمة الاستشراق من مفهوم لغوي إلى مفهوم علمي؟

"الواضح أنّ كلمة "الاستشراق" مشتقة من مادة "شرق"، يقال: «شرقت الشمس شرقاً وشرقاً إذا طلعت»، والجدير بالذكر أن الكلمة التي نبحت عن مفهومها اللغوي لم ترد في المعاجم العربية المختلفة، غير أنّ هذا لا يمنع الباحث من الوصول إلى معناها الحقيقي استناداً إلى قواعد الصرف وعلم الاشتقاق، حيث يبدو أن معنى (استشرق) أدخل نفسه في أهل الشرق وصار منهم". وأمّا إذا أريد تحديد مفهومها العلمي، فيجب أولاً النظر إلى أحد المعاجم الحديثة ثم إلى رأي علماء الغرب وعلماء العرب، لكي يكون في الإمكان بعد ذلك القيام بمحاولة وضع تعريف محدّد لهذا الاصطلاح" (سمبايلوفتش، 1998، صفحة 21).

وتأسيساً على ذلك، فإنّ مصطلح الاستشراق وإن اختلفت الآراء في تحديد مفهومه، فهو مصطلح يطلق على كل باحث غربي في محاولته لدراسة ثقافة وتاريخ الشرق ومعرفة تراثه وسلوكاته ولغته وعقيدته وكل مكوناته الاجتماعية والنفسية، وذلك من أجل التوغل في عقلية وذهنية أهل الشرق والولوج إلى طريقة تفكيرهم؛ وقد دفعتهم إلى هذا أسباب تاريخية دينية وأخرى استكشافية وفقاً لما مايؤكدّه الدارسون "للاستشراق". ولذلك تتباين آراء وأبحاث الدارسين حول نشأة هذا العلم، فمنهم من يرد نشأته إلى حملة نابليون على مصر، ومنهم من يزعم أنه نشأ مع فتح الأندلس، والبعض الآخر يرى بأنه ظهر مع بدايات ترجمة القرآن. والذي لا يدع مجالاً للشك أنّ فترة التقدم الهائل في مؤسسات الاستشراق ومضمونه تزامنت تزامناً دقيقاً مع فترة التوسع الأوروبي الذي لا نظير له، ففي الفترة من 1815 إلى 1914 اتسع نطاق السيطرة الاستعمارية الأوروبية المباشرة من نحو 35 في المئة من سطح الأرض إلى نحو 85 في المئة منه، وامتدت السيطرة إلى جميع القارات، ولكن نصيب آسيا وإفريقيا كان النصيب الأقل. (سعيد، 2006، صفحة 98).

صليحة سنوسي

والواقع أنّ تلك السيطرة الاستعمارية جعلتهم يهتمون بكل ما هو شرقي ويبحثون في حضاراتهم وثقافتهم ويترجمون نصوصهم، فالشرق بالنسبة لهم بمثابة العالم العجيب الذي يحمل الكثير من الأسرار والألغاز التي حلموا باكتشافها وفك رموزها، وتعدّ السيطرة الاستعمارية بالنسبة لهم السبيل الوحيد لاختراق خصوصياتهم ومعرفة سلوكياتهم وممارستهم الاجتماعية والثقافية، وبالتالي تحقيق أحلامهم في اكتشاف "الشرق"، والقضية المطروحة هنا كما يشير إلى ذلك إدوارد سعيد هي اعتبار أنّ المكان الذي تشغله المناطق الأضعف أو المتخلفة مثل الشرق يدعو الفرنسيين إلى الاهتمام به واختراقه وتلقيحه-أي، باختصار، استعمارها. (سعيد، 2006، صفحة 343). وهذا ما قام به المستعمر الفرنسي للجزائر، بحيث لم يكتف بدخول الجزائر بأسلحته الفتاكة والدبابات والمدافع والطائرات الحربية، وإنما عزز جيشه بمتجهمين ومدونين ومستكشفين وفنانين من أجل دراسة المجتمع الجزائري والبحث في مكوناته، حيث اهتموا بمجالات وتخصصات عديدة أهمها المجال الاثنوجرافي، ونتيجة لاستراتيجيات المستعمر الفرنسي للجزائر فقد ظهر للوجود الكثير من المدونين والدارسين للمجتمع الجزائري.

ويمكن القول إن معظم المفاهيم والآراء العربيّة منها والغربيّة حول الاستشراق، على اختلاف مناهجها وتوجهاتها، تتقارب في مسألة واحدة، وهي مسألة دراسة الغرب لثقافة الشرق والبحث في تراثه وفنونه وتاريخه، ولكن الدوافع التي دفعتهم إلى ذلك تختلف من اتجاه إلى آخر ومن عالم إلى آخر، "منها دوافع نفسية، وتاريخية واقتصادية وأيديولوجية ودينية واستعمارية وأخيراً علميّة، وبجانبها دوافع ثانوية وهي أسباب شخصيّة مزاجية عند بعض الذين تهيأ لهم الفراغ والمال واتخذوا الاستشراق وسيلة لإشباع رغباتهم الخاصة في السفر والترحال أو في الاطلاع على ثقافات العالم القديم." (سمايوفتش، 1998، صفحة 40). ولكن الاستعمار من الأسباب الرئيسة التي مهدت وساعدت على وجود الاستشراق فهو "بلا شك يمثل النقطة الخطرة في العلاقات بين الشرق والغرب ومحاولة الأخير السيطرة على الأول وسحق قوته واحتلال أرضه واستغلال مقدراته." (سمايوفتش، 1998، صفحة 50).

3 نشاطات المستشرقين الفرنسيين في الجزائر

يجزم معظم الباحثين في "الاستشراق" بأنّ الصراع بين الغرب والشرق والخلافات العقائدية والعسكرية والثقافية بينهما هي التي أنتجت ما يسمى بـ "المستشرقين" وهذا بعد أنّ عزم الغرب على استعمار واحتلال واستعباد الشعوب وتبديد وحدتهم، "واستعدادا لذلك كان لابد من أن تحول طلائع الغرب في البلاد التي يجب قهرها واحتلالها وأن تكون هذه الطلائع من الذين تعلموا اللغة العربية وغيرها من لغات

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

الشرق لكي يستطيعوا التحدث إلى الشعوب، والبحث في الآثار والتعرف على الأفكار والقيام بالدعايات وإثارة المنازعات وإشعال الخلافات حتى تقع البلاد فريسة بين مخالب الاستعمار " (سمايوفتش، 1998، صفحة 119). ومن أشهر الحملات الاستعمارية التي اصطحبت معها مجموعة هائلة من الكتاب والفنانين والباحثين والمستكشفين والمترجمين حملة الاستعمار الفرنسي. ولذلك يمكننا القول أن بداية كتابات المستشرقين تتزامن مع دخول المستعمر الفرنسي إلى الجزائر عام 1830م، وهذا بعد مرافقة عدد هائل من المستكشفين والمترجمين والباحثين للجيش الفرنسي من أجل مساعدتهم ومساندتهم في حملتهم الاستعمارية وتسهيل اختراق المنظومة الاجتماعية والثقافية للشعب الجزائري. "وعلى إثر نجاح الحملة واحتلال مدينة الجزائر انطلق كل فريق في مجال عمله. وقد احتاجت الإدارة الجديدة إلى مترجمين بالخصوص، لأنهم هم الوساطة بينها وبين السكان. كما وظفت المترجمين من يهود الجزائر الذين كانوا عادة يقومون بالترجمة بين المسؤولين الجزائريين والأجانب في الماضي. وبدأت آلة الإدارة تتحرك في كل اتجاه وقع احتلاله... وأخذ اهتمام المكاتب العربية بالسكان يزداد للتعرف على عاداتهم ولهجاتهم وتراثهم وأنسابهم وطرق معاشهم، وحصلوا من أجل ذلك على وثائق ومخطوطات نادرة، ثم شرعوا في حركة جمع وترجمة وتأليف اعتبرت هي الأولى من نوعها في مسيرة الاستشراق في الجزائر." (أبو القاسم ، 1998 ، صفحة 11). ويعد "سلفستر دي ساسي"¹ (ت 1838)، من أشهر المترجمين الذين ترجموا المنشورات الأولى للحملة الفرنسية على الجزائر وبرزوا في مجال الاثنوجرافية والبحوث الأنثروبولوجية.

من البديهي أن يهتم المستشرقون الفرنسيون بالشعب الجزائري لما حققوه من انتصارات في نظرهم، يذكر أبو القاسم سعد الله "... أنّ الفرنسيين فوجئوا بانتصارهم السهل على جيش الداي حسين وانفتاح أبواب القسبة في وجوههم، ووضع الخزينة بين أيديهم، وانسحاب الحراس من القلاع، وهروب السكان من بيوتهم. ومن حق الفرنسيين أن يتحدثوا عندئذ عن نشوة الانتصار وانكشاف الأسرار." (أبو القاسم ، 1998 ، صفحة 380).

بعدما انبهر الفرنسيون بحقيقة المجتمع الجزائري وثقافته ومناظره الطبيعية، راح كل واحد منهم يؤلف ويكتب مقالات وتقارير ومذكرات و يبدع ويرسم اللوحات. "يقول "شارل تيار"، الذي عالج موضوع الجزائر في الكتابات الفرنسية، إن كتب الانطباعات كانت أول ما ظهر عن الجزائر. ويعني بذلك الكتب

صليحة سنوسي

التي تتناول السكان وأنماط حياتهم وملابسهم وعاداتهم وأخلاقهم، والأحياء السكنية، واختلاف المناظر "الافريقيّة" عن المناظر الأوروبية" (أبو القاسم ، 1998 ، صفحة 381). وهذا إن دلّ على شيء إنما يدل على غنى الجزائر بثرواتها الطبيعية وتراثها الثقافي وتاريخها الراسخ ممّا جعلهم يتهافون على زيارتها واكتشاف عالمها الكبير؛ فمنهم من رافق الجيش الفرنسي من ضباط وعسكريين، ومنهم من وظف في إدارتها، ومنهم من زارها حبًا في استكشافها ومعرفة خباياها، ومنهم من استقر فيها لتعلقه بها، الأمر الذي جعل كتاباتهم تختلف من شخص إلى آخر ومن مجال إلى مجال مغاير، ومن منطقة إلى أخرى، فلم يتركوا شبرا من الوطن الذي حلموا بالوصول إليه إلّا وكتبوا عنه ووثّقوا له، فتطرقوا إلى جميع المجالات والميادين لا سيما التراث الثقافي الجزائري بشقيه المادي واللامادي الذي نشروا جزءا هاما منه في الجرائد والمجلات.

1.2 إنشاء الجمعيات العلميّة ومجلاتها

عمل المستشرقون منذ احتلالهم للجزائر على توسيع نشاطاتهم العلميّة والاستكشافيّة وتنظيم كتاباتهم وتنسيق أعمالهم والقيام بالمؤتمرات وإنشاء الجمعيات واللجان العلميّة، الأمر الذي سهل عليهم حفظ وتوثيق معارفهم. هذا النشاط العلمي والثقافي المميّز الذي استمر إلى آخر عهد الاستعمار، رغم سلبياته وأهدافه الاستعمارية، ساعد الباحثين والدارسين في البحث عن تراثهم ودراسته دراسة موضوعية. ويشير أبو القاسم سعد الله في هذا الصدد إلى أنّه "إذا كان في العهد الاستعماري ما يحمد عليه فهو البحث المستمر في مختلف المجالات، في شكل جماعي، ممّا ساعد على إخراج موسوعات ذات قيمة تاريخية لا تُقنّى بسهولة" وتشمل هذه الأعمال الجماعية مشروع (اكتشاف الجزائر العلمي) ومشروع الاحتفال المثوي بالاحتلال، وبحوث جامعة الجزائر بمختلف مدارسها وكلياتها ومعاهدها، ولجنة دراسة الأوضاع الإسلامية، ولجنة ترجمة الكتب العربية إلى الفرنسية... (أبو القاسم ، 1998 ، صفحة 79). وبطبيعة الحال، فقد أنتج هذا النشاط الجماعي كمّا هائلا وإرثا ضخما من المعارف والمصادر والمعلومات التي تناولوا فيها مختلف المجالات، وهذا ما يفسر العدد الكبير من الجمعيات والمجلات التي صدرت آنذاك؛ حيث "عرفت فرنسا الجمعيات الجغرافية التي كان عددها، وعدد أعضائها، يزيد مرة أو مرتين عن مجموع ما ظهر في أوروبا منها، إلى جانب المنظمات القوية مثل لجنة آسيا الفرنسيّة، ولجنة الشرق، وكذلك الجمعيات العلميّة، وعلى رأسها الجمعية الآسيوية، وهي التي ترسخ تنظيمها وترسخت عضويتها في الجامعات والمعاهد والحكومة" (سعيد، 2006 ، صفحة 343) وقد أدى هذا الازدياد في

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

عدد الجمعيات إلى ازدياد عدد المجلات التي ساعدت على النشر الدوري وبالتالي "مضاعفة كمية المعرفة وكذلك عدد التخصصات الفرعية." (سعيد، 2006، صفحة 101).

وبين معارض ومؤيد لتلك الجمعيات وما عاجلته من مواضيع حول الجزائر والجزائريين، إلا أنه يجب أن نقر بشرة المعرفة وزخم البحوث التي سجلوها لنا في تلك المجلات التي كانت تصدرها الجمعيات، منها المجلة الآسيوية والجغرافية والإفريقية والشرقية والتاريخية. "وقد قام المستشرق اللامع في وقته "رينيه باصيه"² بكتابة تقرير بالمجلة الآسيوية المجلد 15 سنة 1920 عرض فيه ما سماه (نشاط فرنسا العلمي في الجزائر وشمال إفريقيا) وتحديث فيه عما قامت به كلية الآداب بالخصوص من أعمال ومنشورات في خدمة العلوم واللغات والآداب" (أبو القاسم ، 1998 ، صفحة 79). وبصرف النظر عن أهداف المجلات والجمعيات الاستعمارية، إلا أنها ساهمت بشكل كبير في خدمة التراث الثقافي والمشتغلين عليه، وهذا بعد معالجتها لمواضيع مختلفة منها التراث الشعبي في الجزائر وأشكاله المختلفة.

3. أشكال التراث الشعبي الجزائري في "مجلات" المستشرقين

1.3 التراث و علاقته بالمستشرقين

يُعرف الباحثون والدارسون "التراث الشعبي" في الأغلب على أنه مجموعة المواد والعناصر الشعبية التي يتداولها أفراد المجتمع في حياتهم اليومية ويتوارثونها عبر الأجيال، و تشمل مجموعة من المآثورات الشعبية من عادات وتقاليد ومعتقدات وتعايير شفهيّة ومايصاحب ذلك من فنون أدائية كالرقص والأغاني والألعاب، وتعكس هذه الأشكال مشاعر أفراد المجتمع ورؤيتهم للحياة، كما تشهد على تاريخهم الثقافي والاجتماعي. ولا يقتصر التراث الشعبي على الفنون القوليّة والحركية، وإنما يشمل أيضا أشكال شعبية ماديّة كالمباني والمعمار والمواد الصناعيّة والزخرفيّة والأواني. و من هذا المنطلق قسّم التراث الشعبي إلى قسمين تراث شعبي مادي وغير مادي، و من نتائج هذا التقسيم، انقسام الباحثين إلى مجموعة تؤيده و أخرى تؤكّد على تشابهك واشتراك هذه الأشكال فيما بينها.

و قد بدأ الاهتمام بالتراث الشعبي في الجزائر في مرحلة الاحتلال الفرنسي في الربع الثاني من القرن التاسع عشر، فكانت هناك إذن حاجة إلى إثنوغرافيا عسكرية في بداية الاحتلال تعتمد على الثقافة الشعبية لفهم طبيعة مجتمع المستعمرة الجديدة للتمكّن من مواجهته. وما كادت السيطرة تتمّ على الجزائر

صليحة سنوسي

وهران وقسنطينة، حتى تحولت هذه الاثنوغرافيا العسكرية (الاستراتيجية) - على حدّ تعبير بعض الباحثين - إلى انثروبولوجيا (تأكيكية) " (بورابو، 2007، صفحة 08).

وجدريد بالذكر أن الأبحاث حول الحياة الشعبيّة الجزائرية لم تقتصر على العكسرين والضباط فقط، وإنما صاحبته أقلام أخرى - كما ذكرت سابقاً - ممن رافقوا جيش الاحتلال الفرنسي ومنهم أيضاً من استعانوا ببعض الأهالي الجزائريين في التدوين والترجمة مما سهّل عليهم الاندماج بين الأوساط الشعبيّة.

وعلى الرغم من الأهمية التي يوليها الباحثون و الدارسون لكتابات المستشرقين، لا يزال هناك نقص في البحوث والدراسات و في ترجمة ما كتب باللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، ولذلك ينبغي أن تتضافر الجهود من أجل التعريف بجميع مؤلفاتهم ومنشوراتهم عن التراث الشعبي الجزائري. و عليه؛ كان من الضروري التطرق إلى معظم منشورات المستشرقين وماتضمنوه من مواضيع فيما يخص التراث الشعبي، و خاصة ما دُوّن ونشر في بعض الدوريات التي نشرتها الهيئات والجمعيات، والتي من خلالها عمل المستشرقون على "توحيد وتجميع القوى المتفرقة للدراسات الشرقية وازدياد نشاطها واشتداد التنافس بينها لأن الأعمال الكبرى لا تظهر فائدتها إلا بإجتماع القوى المتفرقة، وكانت مثل هذه الجمعيات تتكاثر من عام إلى آخر إذ أنشئ أول مجمع للعلوم والفنون عام 1778 في باتافيا، ثم أنشئت الجمعية الآسيوية عام 1822 في باريس والمجمع العلمي المصري عام 1898 وبذلت هذه الجمعيات وغيرها جهوداً جبارة في دراسة الشرق ولغاته وتاريخه.." (سمائلوفتش، 1998، صفحة 82)؛ ولم تكتف الجمعيات والهيئات بذلك، وإنما نظمت مؤتمرات وندوات ولقاءات دورية، عقدت أولها سنة 1935 بمدينة الجزائر العاصمة والثانية سنة 1936 بمدينة تلمسان والثالثة سنة 1937 بقسنطينة، و التي "تناول فيها عدد من الباحثين والمستشرقين موضوعات التراث الشعبي الجزائري. وقد نشرت أكاديمية الجزائر، التي كانت تصدر نشرة نصف سنوية، عدّة دراسات تتعلق بعادات وتقاليد الأهالي. وكان آخر هذه الجمعيات "الجمعية الانثروبولوجية-الأركيولوجية لعصور ما قبل التاريخ، والتي أسست في منتصف الخمسينات من القرن العشرين مركز" البحث الانثروبولوجي وما قبل التاريخ والانتولوجيا "وهي التي أصدرت مجلة "ليكا" (بورابو، 2007، صفحة 09) التي مازالت تنشط إلى حد الآن. ومن أهم المجالات التي تركت بصماتها في توثيق التراث الشعبي خاصة هي: المجلة الإفريقية (1856-1962)³ - المجلة الجغرافية الجزائرية (1901-1945)⁴ - الجمعية الآسيوية (1822-1920)⁵.

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

المجلة الافريقية: صدرت المجلة الافريقية عن "الجمعية التاريخية الجزائرية" التي تأسست في 07 أفريل 1856 في مدينة الجزائر، على يد "أدريان بيربروجر"⁶ الذي تولى حكمها إلى وفاته سنة 1869. كان الهدف من إنشائها هو "دراسة كل المعلومات المتصلة بتاريخ إفريقيا، ولا سيما المعلومات التي تهم الجزائر، منذ بداية العهد اللوي (الليبي) إلى نهاية العهد التركي". ومن أعضاء الجمعية "لويس برينيه"⁷، والبارون ديسلان⁸، والجغرافي "مكارثي"⁹ والعقيد "دي نوفو"¹⁰، والعقيد "هانوتو"¹¹، الذي كتب عن زواوة، و"بارجيس"¹² الذي كتب عن تاريخ تلمسان، والجنرال "دوماس"¹³ الذي تولى الشؤون العربية في عهد "بوجو"¹⁴، وهو مؤلف كتابي: المرأة العربية وحيول الصحراء (أبو القاسم ، 1998، صفحة 95).

ومن السنة الأولى لتأسيس الجمعية التاريخية الجزائرية، بدأت بإصدار مجلتها الخاصة تحت عنوان "المجلة الافريقية"، والتي استمرت بالصدور سنويا إلى غاية سنة 1962، ولم تنقطع سوى في فترة الحرب العالمية الأولى 1914-1918 ليلبلغ مجموع أعدادها 106 عدد. وقد ساهم فيها نخبة من الشخصيات الفكرية والثقافية البارزة في الجزائر، بما فيهم محمد بن أبي شنب، عبد السلام شعيب، رحمان سليمان، عبد الحفيظ حميدو... وغيرهم. وهي واحدة من أهم المصادر التاريخية التي "اعتنت بنشر المخطوطات المحلية والعربية والوثائق الأصلية، وتسليط الضوء على تاريخ الجزائر في عصوره المختلفة، ولكن بدرجات متفاوتة من الاهتمام. وتعتبر مجلداتها، كما يقول "غوستاف ميرسيه"¹⁵، مكتبة تاريخية في حد ذاتها" (أبو القاسم ، 1998، صفحة 95). و على الرغم من ذلك، فإنها لم تلق الاهتمام الكبير ولم يستفد منها الباحثون الجزائريون حق الاستفادة.

وهناك مجالات أخرى اهتمت بالجزائر والمغرب العربي في مرحلة مبكرة، ومنها نذكر المجلة الجغرافية التي تأسست مع تأسيس الجمعية الجغرافية بباريس، و التي كانت تصدر من 1901 إلى 1945، إلى جانب المجلة **الآسيوية** تأسست بدورها مع تأسيس الجمعية الآسيوية سنة 1822 بباريس، وقد كانت تضم حوالي 700 عضو من فرنسا والعالم، منهم **بنجامين فانسان، وشيربونو**¹⁶... برئاسة "سلفستير دي ساسي"¹⁷. عالجت الجمعية العديد من القضايا الثقافية وقضايا التنمية والمعارف، من المغرب إلى أقصى الشرق عن طريق مقارنة علمية مختلفة التوجهات باختلاف الثقافات لبعض المجتمعات خاصة المغاربية. "وكانت الجمعية الآسيوية الفرنسية، أولى الجمعيات الأوروبية الحرة، تضم أبرز علماء الاستشراق في

صليحة سنوسي

فرنسا، كما كان تأسيسها لغرض ترويج آداب الشرق، وقد أنتجت المجلة خلال الفترة المعنية بالدراسة 100 مجلد، هي بمثابة وثائق أولى للدراسة، لاسيما تقريرها السنوي الذي اعتبره فطاحل الفكر الاستشراقي الفرنسي "أصدق جهد تاريخي في ميدان الاستشراق" (معرش، 2009، صفحة 07). ساهمت هذه المجلات، بغض النظر عن أهدافها المختلفة، في التعرّض إلى واقع التاريخ الثقافي وعالجت جميع مناحي الحياة الشعبية الجزائرية. "يقول المستشرق "هنري ماضي"¹⁸، عن جهوده وجهود زملائه: إنّ المجلات التي عالجها المستشرقون (يسميهـم المستعربين) في الجزائر خلال رحلتهم هي: المعاجم، واللسانيات، والخطوط(الكتابات)، والتاريخ الديني، وتحقيق وترجمة النصوص الأدبية والتاريخية والجغرافية والفقهية والعلمية، ثم الدراسات الانثوجرافية والفلكلورية، وأخيرًا الكتب المدرسية" (أبو القاسم ، 1998، صفحة 61). فالملاحظ هنا أنّهم لم يتركوا مجالاً من مجالات المجتمع الجزائري وطبيعته الجغرافية والاجتماعية والثقافية واللسانية إلا وتطرقوا له.

1.3 المستشرقون وأشكال التراث الشعبي

منحت هذه الدوريات الثلاث وغيرها أهمية كبيرة لمختلف جوانب التراث الشعبي والثقافي في المجتمعات المغاربية عامة والجزائرية خاصة. ورغم الجدل القائم حول الاهتمام البالغ الذي يوليه الباحثون لهؤلاء المستشرقين في مجال التراث المادي واللامادي، إلّا أنّها تبقى المرجع الأساسي لهم، خاصة وأنّها تلمّ بالحياة الثقافية والاجتماعية والتاريخية لمجتمعات مختلفة، تبرز من خلالها عاداتهم وتقاليدهم ومعتقداتهم، لهجاتهم ومعارفهم الشعبية .

ومن أبرز الموضوعات التي صنفناها في المجلات المذكورة أعلاه هي تلك المتعلقة بالتراث المادي واللامادي، وأهمّها المقالات المتعلقة بالعادات والتقاليد الشعبية، والأعياد والمواسم، والمعتقدات والفنون الشعبية... إلى جانب التعابير الشفوية كالأمثال والألغاز والأشعار والقصص والحكايات الشعبية والأغاني والموسيقى. كلّ هذه المواضيع تجعلنا نحدّد أصول الهوية الجزائرية القائمة بتراثها الراسخ عبر التاريخ. وعليه، تمّ جرد وإحصاء مجموعة من المقالات عن مواضيع حول التراث الشعبي المادي والغير مادي. وقد صنفناها حسب المواضيع على النحو التالي: الأغنية الشعبية-الحكاية-اللهجة-الشعر الشعبي-العادات والتقاليد والمواسم الشعبية-القبائل العربية والأمازيغية-الشخصيات الدينية البارزة-الموسيقى والآلات المصاحبة لها-المساجد والأولياء.

3.3 تصنيف احصائي موضوعاتي

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

وبناء على ذلك، وفي خضم هذه الموضوعات الملّمة بالذاكرة الشعبية، أعدنا تصنيفًا إحصائيًا مواضيعي لأهمّ المقالات التي تناولت هذا الإرث الشعبي، وعالجت بالدراسة والتحليل بعض السلوكيات الاجتماعية للشعب الجزائري والمغاربي الذي استعمل الكلمة البسيطة ذات الدلالة العميقة في التعبير عن مكوناته في تفسير بعض الظواهر الاجتماعية. ولهذا السبب، حضّي التراث الشعبي بتلك الأهمية البالغة في كتابات هؤلاء المستشرقين، حيث احتوت المجالات السابق ذكرها على ما يفوق 300 مقال خاص بالثقافة والتراث الجزائري، ورد معظمها في المجلة الإفريقية - وأشير هنا إلى عدم التطرق للأعداد الكاملة للمجلة الأسبوعية-، وقد سبق للمستشرق "روني بأسّي" أن نشر دراسة حول "الفولكلور في المجلة الأسبوعية 1822-1920"¹⁹ في العدد 62 من المجلة الإفريقية سنة 1921 (صفحة 15-46)، هذا إلى جانب بعض الباحثين الجزائريين أمثال محمد العربي معريش في كتابه "الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق من خلال المجلة الاسبوعية (1822-1872)" (معريش، 2009).

ونظرا لأهمية مواضيع التراث الثقافي الجزائري في هذه المجالات (الإفريقية والجغرافية)، فقد نشرنا جميع المقالات-التي تشمل التراث الثقافي الجزائري-بأعدادها الكاملة مصنفة كالتالي: (اسم المؤلف-عنوان المقال-الصفحة-عدد المجلة-السنة-رقم الجزء)، وجاء الترتيب حسب السنوات وهذا بدفاتر "تراث" التي تصدر عن المركز الوطني للبحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية بوهان (سنوسي، 2013، الصفحات 101-144) وعلى أساس هذا الجمع قمنا بتقسيم المقالات إلى محاور رئيسية وفقا لاحتواها وركزنا فيها على النماذج التالية: التعابير الشفهية وفنون القول، العادات والتقاليد والمواسم الشعبية، الثقافة المادية والفنون الشعبية، المعتقدات والمعارف الشعبية.

1. التعابير الشفهية وفنون القول

ويتجلى تواصلنا الثقافي في ضروب مختلفة من التعابير الشفهية، التي تعدّ من أهمّ وأبرز المواضيع التقليدية في التراث الشعبي، وواحدة من المواضيع الأكثر بحثا ودراسة، نجملها في مجموعة من الأشكال الشعبية الشفهية، بما في ذلك الشعر، المثل، الأغنية، الحكاية، الحكم.

الجدير بالذكر أنّ هذه الأشكال حظيت بأهمية كبيرة، خاصة الشعر الشعبي، حيث نجد العديد من نصوص هذا الشعر التي تم جمعها ونشرها في هذه الدوريات، وغالبًا ما كان يوثق المعارك والمقاومات بين الجزائريين والمستعمر الفرنسي. ومن أشهر القصائد التي وثّقت مثل هذه الأحداث: "قصيدة دخول

صليحة سنوسي

الفرنسيين إلى الجزائر" التي نظمها عبد القادر الوهراني المتوفي سنة 1833 ونشرها جوزيف ديسبارمي.²⁰ وكذلك القصائد التي جمعها "الاسكندر جولي"²¹ في سنة 1900 - من بعض مناطق الجنوب والهضاب العليا- كمنطقة الأغواط، وتيارت، وبسكرة، وعين الصفراء-وقام بتعريفها وتقسيمها إلى أشكال مختلفة مثل (الزغوية، المدح، القول، الهجرة، القطاعة، الغناء، والعيدي) في مقاله -بالمجلة الافريقية- الذي قدم فيه انطباعات وملاحظات حول الشعر الشعبي ، وتمثلت هذه الأشكال فيما يلي: أما "لويس سونيك"²² فقد قام بجمع مجموعة من الأشعار في كتاب (الديوان المغرب في أقوال عرب إفريقيا والمغرب) سنة 1904. " هذا الكتاب الذي اعتنى بالشعر الاجتماعي الذي يصور المجتمع في عصره بأسلوب ساخر، وكذلك ببعض الشعر الإباحي الذي لم يجزؤ الجامعون الجزائريون على تدوينه ونشره حتى اليوم" (بورايو، 2007، صفحة 47). من بين المستشرقين الذين كرسوا كتاباتهم للشعر الشعبي المستشرق "شارل فيرو"²³ حيث قام بترجمة قصيدة -بالمجلة الافريقية 1886- تنغى ببطولات بعض الشهداء منهم محمد بوختاش الذي توفي في مقاومته الشعبية سنة 1864.

كما حضني الشعر الأمازيغي بنصيب أوفر في تدوينات المستشرقين، وذلك لما يتضمنه من ضروب شعرية متنوعة كالقصائد الدينية والملحمية والسياسية والفلسفية والتاريخية، "ولعل أقدم نصوص مدونة للشعر القبائلي قام بتسجيلها الباحث الأمريكي "هودقسون"²⁴ قبل الاحتلال الفرنسي للمنطقة ببضع سنين ". (بورايو، 2007، صفحة 38) إلى جانب ما نشره "هانوطو"²⁵ سنة 1867 من أشعار قبائلية وما اعتنى به من مضامين حول الاستعمار الفرنسي، وما نشره أيضًا "لوسيانى"²⁶ و "ل.رين"²⁷. وعلى سبيل الإشارة، لم يكتف المستشرقون بدراسة الأشعار الأمازيغية، بل كرسوا أبحاثهم حول الأسماء الأمازيغية، مما يؤكد اهتمامهم بكل ما يخص الأمازيغ والأمازيغية، كما تشير إليه مدوناتهم في هذا المجال، حيث اعتبروا أسماء الأعلام والأماكن أحد الشواهد الصارخة على استمرارية الثقافة الأمازيغية وتواصلها. وقد عملوا على البحث في أسمائها وأسماء مدنها وقراها التي لا تزال تحتفظ بأسمائها القديمة. ولم يكتفوا بأسماء المدن، وإنما بحثوا في أسماء الجبال والنباتات، وهذا ما نلاحظه في الدراسات أو النماذج التي تطرقت إلى دراسة الأسماء ودلالاتها، كدراسة "غوستاف ميرسيه"²⁸ في أسماء الأماكن (توبونيم) البربرية بالأوراس، ودراسة أسماء النباتات في الشاوية (أبو القاسم ، 1998، صفحة 55)، إلى جانب بحث "كليمو-ملي"²⁹ المتعلق ببعض العائلات من النباتات، كما وثق العديد من المستشرقين بعض الأسماء

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

لحيوانات وطيور ونباتات مختلفة خاصة آرنو، المترجم العسكري الذي اهتم كثيرا بالأسماء المستعملة في منطقة الجلفة.

وبطبيعة الحال، لم تتوقف استكشافات المستشرقين على البحث في المجال القبائلي وإنما تواصلت جهودهم في مختلف المناطق الجزائرية وتطرت إلى مختلف اللهجات المحلية من أجل ترجمة أشعارها ودراسة مجتمعها، ولذلك كان يجب عليهم الامام باللهجات المحلية وركزوا على دراسة مختلف اللهجات الجزائرية منها البربرية والشاوية والمزابية والطارقية وغيرها، وخاصة المستشرق "ألفريد بال"³⁰ و"روني باصي"³¹

الذي اهتم باللهجة التلمسانية، ولهجة ولاد إبراهيم بسعيدة، واللهجات الصحراوية والافريقية. وهو من المستشرقين الذين اهتموا طويلا بدراسات اللهجة مع تلامذته، "وتكفي الإحالة إلى أعمال باصي في (الميلانج) الذي يحمل اسمه لتعرف كم كتب عن اللغتين العربية والبربرية وآدابهما. وهذه الفترة هي التي عرفت انطلاقة كبيرة لدراسة اللهجات العربية والبربرية. لأنه كان عصر الاهتمام باللهجات عامة في المغرب العربي وافريقيا" (أبو القاسم ، 1998، صفحة 53). والملاحظ أن أعمال هذا المستشرق اللغوي لم تنحصر في اللغات واللهجات العامية، وإنما تعدتها إلى الأعمال القصصية والتاريخية والفولكلورية...

الى جانب "وليام مارسى"³² وأخوه "جورج"³³ الذي تمكن من اتقان اللغة العربية والأمازيغية بالإضافة إلى "سيلفستر دي ساسى"³⁴ و"أندري باصي"³⁵ و"أوغست شربونو"³⁶ و"غوستاف موتيلانسكى"³⁷ الذي اهتم باللهجات الصحراوية والافريقية ومنها لهجة مزاب وغدامس.

ومن أكثر اللهجات حضا بالناية هي اللهجة القبائلية، التي أنجزت فيها العديد من البحوث والأعمال العلمية والدراسات اللسانية، خاصة الباحث "كوهين"³⁸، الذي اهتم إلى جانب البربرية باللهجة اليهودية بالجزائر و"تكسي"³⁹ الذي أصدر دراسات عديدة عن البربر.

عمل هؤلاء وآخرون لم نذكرهم على توسيع معارفهم باللهجات الجزائرية، وتعززت درايتهم بها بعد تعلمهم اللهجة وتدريسهم لها وإصدار كتب عديدة في هذا الصدد، منها ما ألفه "جونى فرعون"⁴⁰ في النحو بالعامية الجزائرية الموجهة للفرنسيين. و نذكر أيضا المعاجم والقواميس الخاصة بالترجمة، منها قاموس فرنسي-تارفي لصاحبه "ايميل ماسكرى"⁴¹ الذي اهتم أيضا باللهجات المزابية والشاوية والتارقية، وقاموس آخر فرنسي-شاوي وفرنسي-قبائلي لصاحبه "هويغ"، كما "ظهرت عدة قواميس أخرى على يد "جونى فرعون" و"دي بوسى"⁴² و"برينييه"⁴³ و"ماشويل"⁴⁴ (أبو القاسم ، 1998، صفحة 42).

صليحة سنوسي

أمّا في المجال الحكائي، فكان التركيز على دراسات عديدة حول القصص والحكايات الشعبيّة كدراسة "روني باسي"⁴⁵ لـ "بنت الخص"، ودراسة "الجازية" لـ "ألفريد بال" 1903⁴⁶، و"هارتمن"⁴⁷ لحكايات بني هلال 1898. و"ليو فروينبيوس"⁴⁸ الذي قام بتدوين بعض الحكايات القبائلية باللغة الأجنبية 1873-1938. هذا إلى جانب ترجمة بعض الحكايات الشعبية، مثل "فيسير" الذي ترجم قصة الجازية ودياب" ونشرها في المجلة الافريقية تحت عنوان أولاد غشايش" (المجلة الافريقية 1892)، وايضاً ترجمة المستشرق "كور"⁴⁹ لقصة شعبية للشيخ بلقاسم الرحموني الحداد.

كما كان لـ "جوزيف ديسبارمي"⁵⁰ الدور الكبير في تدوين ونشر العديد من الحكايات والقصص الشعبيّة، بعضها تم نشره والبعض الآخر لا يزال مخطوطاً في بعض المكتبات الفرنسية، فكتب عن المغازي مثل "غزوة الخندق"، "غزوة الامام علي ورأس الغول" وغيرها، وقام بجمع بعض الحكايات الشعبيّة من منطقة بلدية سنة 1909. هذا إلى جانب المستشرق "مالينغو" الذي نشر مجموعة من الحكايات البدوية سنة 1925، ومجموعة أخرى من المستشرقين الذين دونوا الحكايات الشعبيّة أمثال: أوغيسست مولير⁵¹، إميل درماغام⁵²، إميل لاووست⁵³، أنري جنفوا⁵⁴ وآخرون. كما كان للأمثال والأغاني الشعبيّة نصيباً في الجمع والتدوين، نذكر في هذا الصدد "روني باصي" الذي قام بجمع مجموعة من الأمثال الشعبيّة من منطقة وهران في المجلة الآسيويّة عام 1890، وقام ابنه "أنري باصي" بجمع الأمثال من منطقة الأهقار في المجلة الافريقية عام 1922. كما اهتم "جوزيف ديسبارمي" في دراساته وجمعه بالأغاني الشعبية خاصة ما نشره حول "أغاني المآثر من 1830 إلى 1914 بمثابة". هذا إلى جانب ما نشره "ألكسندر جولي" و"يفيل نتان"⁵⁵ حول "أغاني مدينة الجزائر وضواحيها 1909 وما ترجموه من أغان جزائرية وأندلسية وعاصميّة.

2. العادات والتقاليد والمواسم الشعبيّة

العادات والتقاليد هي "ظاهرة أساسيّة من أهمّ ظواهر الحياة الاجتماعية والإنسانيّة. هي حقيقة أصيلة من حقائق الوجود الاجتماعي. نصادفها في كل مجتمع، تؤدي الكثير من الوظائف الاجتماعية الهامة، عند الشعوب البدائيّة، كما عند الشعوب المتقدمة، عند الشعوب في حالة الاستقرار، وفي حالات الانتقال والاضطراب والتحول. وهي موجودة في المجتمعات التقليديّة التي يتمتع فيها التراث بقوة القاهرة وإرادة مطلقة." (الجوهري، 1992، صفحة 38). ولهذا عمل بعض المستشرقين على جمعها وتدوينها لما تميزت به الجزائر من عادات وتقاليد وفنون تقليدية وطقوس اجتماعيّة متنوعة، لاسيما الأعياد والمواسم

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

الشعبية التي قاموا حولها بالعديد من البحوث والدراسات عبر القطر الجزائري، مثل بعض الأعمال المتعلقة بالأعياد ومواسم بني سنوس، وأشهرها عيد يناير (12 يناير/كانون الأول) أو رأس السنة الأمازيغي التي دونها أدموند ديستان⁵⁶. وقدم الكثير عن المنطقة، بما في ذلك "أعياد وعوائد موسمية لدى بني سنوس" و"الشتاء لدى فلاحي بني سنوس"، وهي عبارة عن مجموعة من العادات والتقاليد والأعياد الموسمية الخاصة بمنطقة بني سنوس الواقعة بتلمسان. الجدير بالذكر أنّ منطقة "بني سنوس" حظيت باهتمام كبير من طرف المستشرقين، وذلك لما احتوته من عادات وتقاليد متنوعة إلى جانب الأعياد الموسمية التي تشتهر بها كـ "عيد العنصرة" و"غنجة" وغيرها، وهي من بين الأعياد الموسمية المشهورة في المنطقة التي تقام في فصل الصيف.

ومّا لا شك فيه أنّهم لم يتركوا شبرًا من الوطن إلا ووثقوا عادات سكانه وتقاليدهم، كتوثيقهم لعادات وسلوكيات المرأة "البلدية" عند الإنجاب وتربية الأطفال، وقيامها ببعض الممارسات والسلوكيات التقليدية، كمدونات "جوزيف ديسبارمي"⁵⁷ في كتابه "الفوائد في العوائد والقواعد والعقائد" سنة 1958، والذي قسمه إلى قسمين قسم في تربية الأولاد والقسم الثاني في الأسرة والزواج. إلى جانب ما نشره أيضًا "جوجنالون" عن منطقة ورقلة وما يمارسه سكانها من أعياد ومواسم، كأعياد الزواج وعاشوراء وعيد الربيع، وعيد النخيل والتمور وغيرها. أمّا "غوستاف موتيلانسكي"، فقد قام بالعديد من الرحلات وقضى العديد من السنوات بمنطقة (ميزاب) التي ساعدته على دراسة العادات والتقاليد والتعرف على العلماء والمكتبات، وكان يعرف العربية الفصحى والدارجة، وأضاف إلى ذلك دراسة البربرية في ميزاب ولهجاتها الأخرى في الصحراء" (أبو القاسم ، 1998، صفحة 38).

كما نجد في أعمال "إيميل ماسكري" كتابات عديدة حول عادات المجتمع الجزائري خاصة في منطقة الصحراء والأوراس والقبائل "والتي لا تكاد تظهر إلا لمن دقق النظر وأكثر المعاشرة: الحفلات، والشارات، والأساطير، والألغاز، والأمثال، ونحو ذلك. وهو من الأوائل الذين كتبوا عن قبائل البربر في الأوراس، وعن لباسهم ولهجاتهم وبقايا الآثار والتاريخ هناك. كما اهتم بالحياة الداخلية لسكان زواوة، وكان ينشر مقالاته في (المجلة الإفريقية) " (أبو القاسم ، 1998، صفحة 383). كما واصل "ادمو دوتي"⁵⁸ الخوض في كتابة العديد من المقالات في التقاليد الشعبية واللهجات العامة في شمال إفريقيا.

صليحة سنوسي

ومن الموضوعات التي شغلت هؤلاء، موضوع الصحراء وعادات وتقاليد سكانها، فقد شكّلت حافزاً كبيراً لاهتمامهم لما تتميز به من خصوصيات متعددة، حيث تطورت الدراسات ونشر الكثير حولها بداية من رحلة المستكشفين وتوافد المستشرقين عليها، فدوّنوا مذكراتهم وملاحظاتهم واصفين شساعة الصحراء وغط معيشة سكانها وكل ما يتعلق بتراتها ومجالها السكاني، وعاداتهم وممارساتهم اليومية والموسمية.

فمن الواضح أنّ هؤلاء المستكشفين قد تطرقوا للعديد من المناطق الصحراوية بالبحث والدراسة، إلا أنّ منطقة "التوارق" كان لها الحظ الكبير في ذلك لما اكتشفوه في هذا المجتمع "الجديد الغريب" بالنسبة لهم. "...عالم لا هو بونيقي، ولا روماني ولا وندالي ولا بيزنطي ولا عربي ولا تركي، إنّما هو عالم إفريقي، في نظر المستشرقين، حافظ على نفسه إلى القرن 19م، عبر هيمنات أجنبية، من خلال اللسانين القبائلي والتارقي، والخط التيفيناغي، وكذلك من خلال النقوش الليبية والمؤسسات والعادات الخاصة بأهل البلد "الأصليين" (معيرش، 2009، صفحة 476). ولذلك، لابد من التنويه بمنشوراتهم عن الصحراء التي دونوا فيها مواضيع مختلفة عن هذه المنطقة وممارسات سكانها، وبالأخص المجتمع التارقي وطبيعته الاجتماعية والثقافية واللسانية، منهم "جوير" و"بروسلار"⁵⁹ المستشرق الذي اهتم بمنطقة تلمسان، و"دولابورت"⁶⁰، و"بواسوني"⁶¹ اللذان اهتمتا باللهجة التارقية "تمشخت"، ونشروا مفردات لها بالعربية. كما لا نغفل عن مانشره الباحث "دافيزاك"⁶²، والمتمثل في ترجمة لرحلة الأغواطي في وصف بعض المناطق الصحراوية الممتدة من الأغواط إلى تمبكتو ومن شنقيط إلى جربة، مع تعليقات وإضافات. (أبو القاسم، 1998، صفحة 91).

بالإضافة إلى ذلك، ما وجدته المستشرق من راحة في طبيعة الصحراء وهدوئها فقد كان يأوي إليها العديد من المبشرين والرهبان أمثال "شارل دوفوكو"⁶³، صديق المارشال "ليوتي"⁶⁴ الذي اهتم كثيرا برسومات والنقوش المتواجدة بالصحراء خاصة الطاسيلي النجر و"باصيه"، الذي كان يدرس شؤون المغرب والصحراء إلى الحقار، ويؤلف قواميس عن اللهجة البربرية في المناطق المختلفة في الصحراء، سيما منطقة الطوارق أو التوارق" (أبو القاسم، 1998، صفحة 55).

3. الثقافة المادية والفنون الشعبية

" تمثل الثقافة المادية صدى لتقنيات ومهارات ووصفات انتقلت عبر الأجيال وخضعت لنفس قوى التقاليد المحافظة والتنوعات الفردية التي يخضع لها الفن اللفظي." (الجوهرى، 1992، صفحة 46)، ما جعل المستشرقون يهتمون بها خاصة بعدما وجدوه من غنى لهذا التراث المادي والفنون الشعبية بالجزائر،

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

فاهتموا بجميع المجتمعات التقليدية وما تقوم به من صناعة وفلاحة، وما تصنعه من منتجات يدوية كصناعة النسيج، والفخار، والحلي، والخزف ونحو ذلك.

احتفظت الصناعات التقليدية وعتاد الحرف الشعبيّة، بفنون زخرفيّة موعلة في القدم كالرسومات الهندسية المستعملة في نسيج الزرابي، وصناعة الخزف والحلي والفخار، وأغلبها منقوشة بحروف أبجدية (التيفيناغ)، كما أنّ للصناعات الحرفية الأخرى كالذهب والفضة وغيرها عنصر آخر من عناصر هذه الثقافة لا يمكن تجاهلها، وهذا ما لم يغفله الرعايا الأوائل. إلى جانب دراسات أخرى مثل دراسة "ألفريد بال" عن "صناعة الصوف في تلمسان".

ولا يفوتنا أيضا أن ننوه لما أولوه من اهتمام نحو الأبنية والعمران، مثل المساجد والقصور كدراسة "ألفريد بال" للآثار المعمارية المتواجدة بمنطقة بني سنوس، مثل المساجد والتي قدم فيها وصفا دقيقا وموضوعيا. ومن المستشرقين الذين خاضوا ميدان البحث الموضوعي أيضا "جورج مارسيل"⁶⁵ خاصة في دراساته عن الأبنية القديمة والمساجد بمنطقة تلمسان ما جعله يلقبها "بمدينة الفن والتاريخ". وفن العمارة عند البربر في الصحراء ل"مارسي مارسال".

أما الألعاب الشعبية كان لها أيضًا نصيب من هذا الاهتمام والبحث والتدوين، أمثال "روبر أشيل"⁶⁶ من خلال مقاله في المجلة الإفريقية (1921) التي يوضح فيها بعض الألعاب الشعبية التي كانت تُمارس آنذاك بمنطقة برج بوعريّيج وقام بتصنيفها إلى مواضيع أهمها: الألعاب الجماعية ومنها الرياضية والألعاب الفردية وذكر العديد من النماذج.

نُعرِّج أيضا على المستشرق "جوزيف ديسبارمي" وما جمعه من ألعاب شعبية في كتابه المخطوط باللهجة العامية، والذي ينقسم إلى قسمين؛ قسم خاص بالطفل وقسم آخر خاص بالزواج والأسرة.

أما فيما يخص جانب الصناعات التقليدية اهتم الكثير بهذا الفن التقليدي خاصة المستشرق "ألفريد بال" الذي اهتم بنماذج عديدة للصناعات التقليدية في شمال افريقيا ووصف أشكالها، هذا إلى جانب أبنيتها ونقوشها. ومن بين تلك الصناعات التي أثارت حفيظتهم، صناعة النسيج التقليدي والآلات المستعملة كبحث "ج. شانتر" بمنطقة بوسعادة.

4. المعتقدات والمعارف الشعبية

ونقصد بالمعتقدات "ما يؤمن به الشعب فيما يتعلق بالعالم الخارجي والعالم فوق الطبيعي... التي تنبع من نفوس أبناء الشعب عن طريق الكشف أو الرؤية أو الالهام، أو أنها كانت أصلاً معتقدات دينية-اسلامية أو مسيحية أو غير ذلك - ثم تحولت في صدور الناس إلى أشكال أخرى جديدة بفعل التراث القلم الكامن على مدى الأجيال"، (الجوهري، 1992، صفحة 34). والملاحظ هنا أنّ المجتمع الجزائري يحمل العديد من الممارسات والسلوكيات لمعتقدات شعبية، التي اختفى بعضها ولا يزال بعضها الآخر قائماً. ومن بين أهم ما انشغل به المستشرقين في الجزائر الأولياء والطقوس المصاحبة لهم، إلى جانب الممارسات الشعائرية التي كانت تمارسها الجماعات الصوفية وما يرتبط بها من ممارسات وعادات وتقاليد. ومن بينها ما سجله "إميل ماسكري" و"روني باسي" عن تاريخ الأولياء الصالحين، وما نشره الضابط "إميل دنفو" عن الجماعات الدينية والطرق الصوفية، وما ألفه "ك. تريميلي"⁶⁷ و"ألكسندر جولي"⁶⁸ عن الأولياء والأضرحة وكراماتهم والمعتقدات المرتبطة بهم.

وفي خاتمة هذا البحث، نشير إلى أن ما قمنا به هو مجرد لمحة عن ما كتبه بعض المستشرقين في التراث الشعبي باللغة الفرنسية، في مجالات مختلفة كالمجلة الإفريقية والجغرافية. حيث اعتنوا بكل ما يخص التراث الجزائري، وبحثوا في التاريخ والأصول والأسماء، بل ودرسوا لغاتنا ولهجاتنا. إلا أنه على الرغم من جهوداتهم، إلّا أنّنا لا يمكن أن نكسبهم صفة البحث العلمي الجاد؛ كما لا يمكننا أن ننكر أنّ أعمالهم قد أفادتنا في العديد من المجالات، لاسيما المجال الثقافي وكل ما يرتبط بالتراث الشعبي بشطريه المادي واللامادي، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على غنى هذا الوطن بموروث ثقافي زاخر، متنوع الأشكال يعكس هويته التاريخية والثقافية التي لا يمكن تحديدها والوقوف عندها إلّا من خلال الكشف عنها ودراستها.

ببليوغرافيا:

philippe Lucas, J.-C. V. (1975). *L'Algerie des anthropologues*. Paris: François Maspero.

أحمد سمايلوفتش. (1998). *فلسفة الاستشراق وأثرها في الأدب العربي المعاصر*. القاهرة: دار الفكر العربي.
إدوارد سعيد. (2006). *الاستشراق، المفاهيم الغربية للشرق* (الإصدار الأول). (محمد عناني، المترجمون) القاهرة: رؤية للنشر والتوزيع.

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

الحاج ملياني، صليحة سنوسي. (2013). تراث. بيبليوغرافيا حول التراث الثقافي الجزائري، المغاربي وعموميّات (26)،. وهران: منشورات المركز الوطني للبحث في الانثروبولوجية الاجتماعية والثقافية Crasc.

سعد الله أبو القاسم . (1998). تاريخ الجزائر الثقافي. الجزائر: دار الغرب الاسلامي.
شايب الدور أحمد. (2009-2010). الاستشراق الفرنسي والتراث الشعبي في الجزائر. وهران، الجزائر.
عبد الحميد بورايو. (2007). الأدب الشعبي الجزائري، دراسة لأشكال الأداء في الفنون التعبيرية الشعبية في الجزائر. الجزائر: دار القصبة للنشر.
محمد الجوهري. (1992). دراسات في علم الفولكلور. الإسكندرية: دار المعارف الجامعية.
محمد العربي معيرش. (2009). الاستشراق الفرنسي في المغرب والمشرق، من خلال المجلة الأسبوعية 1822-1872. بيروت: دار الغرب الاسلامي.

ملحق:

¹ Silvestre De Sacy : (1758-1838)

² Basset René: (1855-1924)

³ Revue Africaine : (1856-1962)

⁴ Bulletin de la Société Géographique d'Alger et de l'Afrique de nord : (1901-1945)

⁵ Journal Asiatique : (1822-1920)

⁶ Berbrugger, Aderien: (1801-1869)

⁷ Bresnier, Louis-Jacques : (1814-1869)

⁸ Slane (De), William: (1801-1878)

⁹ Mac-carthy Oscar: (1815-1894)

¹⁰ M. de Neveu (Colonel) : (1809-1871)

¹¹ Hanoteau, Adolphe : (1814-1897)

¹² Bargès, Jean Joseph Léandre (1810-1896)

¹³ Daumas, (Melchior-Joseph-Eugène) (Général) : 1803-1871

¹⁴ Bugeaud, Thomas Robert : (1784-1849)

¹⁵ Mercier, Gustave -Lacombe: (1815-1874) - (les Mercier: Ernest, Gustave et Marcel.)

¹⁶ Charbonneau, Auguste: (1813-1882)

¹⁷ Silvestre (De) Sacy : (1758-1838)

¹⁸ Massé, Henri : (1886-1969)

- ¹⁹ Basset, René : « le folklore dans le journal Asiatique (1822-1920) » ; Revue Africaine, N°62 1^{er} Trimestre, Année 1921(Page 15-46)
- ²⁰ Désparmet, Joseph : (1863-1942)
- ²¹ Jolly, Alexandre : (1870 -1913)
- ²² Constantine Louis Sonneck : (1849-1904)
- ²³ Féraud, Laurant-Charle: (1829-1888)
- ²⁴ Hodgson, Williame : (1877-1918)
- ²⁵ Hanoteau, Adolphe : (1814-1897)
- ²⁶ Luciani J.D : (1851-1932)
- ²⁷ Rinn, Louis (Colonel): (1838-1905)
- ²⁸ Mercier, Gustave -Lacombe : (1815-1874)
- ²⁹ Clement-mullet, Jean-Jacques: (1796-1865)
- ³⁰ Bel, Alfred : (1954-1873)
- ³¹ Basset, René: (1855-1924) - Les BASSET : René et ses fils André et Henri)
- ³² Marcais, Wiliam : (1956-1872)
- ³³ Marçais, George : (1876-1962)- les frères Marçais: Georges, Philippe et William -
- ³⁴ Silvestre (De) Sacy : (1758-1838)
- ³⁵ Basset, André : (1895-1956)
- ³⁶ Charbonneau , Auguste: (1813-1882)
- ³⁷ Calassanti-Motyliniski, Adolphe: (1854-1907)
- ³⁸ Cohen, Marcel : (1884-1974)
- ³⁹ Tauxier, Henri : (1828-1896)
- ⁴⁰ Pharaon, Joanny : (1803-1846)
- ⁴¹ Masqueray, Emile (militaire): (1843-1894)
- ⁴² Beaussier, Marcelin : (1821-1873)
- ⁴³ Bresnier, Louis-Jacques: (1814 -1869)
- ⁴⁴ Machuel, Louis : (1848-1922)
- ⁴⁵ Basset, René : (1855-1924)
- ⁴⁶ Bel, Alfred : (1954-1873)
- ⁴⁷ Martin Hartmann: (1851-1918)
- ⁴⁸ Leo frobenius: (1873-1938)
- ⁴⁹ Cour, Auguste : (1866-1945)
- ⁵⁰ Désparmet, Joseph: (1863-1942)
- ⁵¹ Mouliéras, Auguste: (1855-1931)
- ⁵² Dermenghem, Emile: (1892-1971)
- ⁵³ Laoust, Emil: (1876-1952)
- ⁵⁴ Henri, Genevois : (1913-1978)
- ⁵⁵ Edmond Nathan Yafil: (1874-1928)
- ⁵⁶ Destaing Edmond : (1872-1940)

عنوان المقال: التراث الشعبي في مرآة انتاج المستشرقين.

- ⁵⁷ Désparmet, Joseph : (1863-1942)
⁵⁸ Edmond Douuté : (1867-1926)
⁵⁹ Brosselard, Charle M.: (1816- 1899)
⁶⁰ Delaporte, Jacques-Denis: (1777- 1861)
⁶¹ Boissonnet Estève-Laurent : (1902 -1811)
⁶² Armand d' Avezac : (1800-1875)
⁶³ Charles Eugène de Foucauld : (1858-1916)
⁶⁴ Lhote, Henri : (1901-1991)
⁶⁵ Marçais, Georges : (1876- 1962)
⁶⁶ Achille, Robert : (1851-1931)
⁶⁷ Trumelet, Corneille. : (1817-1892)
⁶⁸ Jolly, Alexandre: (1870 -1913)